الحقائق العليا فى الحياة

الايمان . الحق . الجمال . الخير . القوة . الحب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الايمان

بقية الحديث فى مصير الانسانية

إن مصير الانسانية ليس بالأمر الذى يمر عليه القلم بدون إلحاح فى تركيزه فى العقول وتبيين آثاره فى الحياة وفى النفس . إنه الحياة كلها فى رأى الدين ، والعدم كله فى رأى الالحاد . وشتان بين الحياة كل الحياة ، والعدم كل العدم فيما وراءهما من آثار ! شتان بين أن يعتقد الانسان أنه جنين فى بطن الدنيا سيولد منها ولادة ثانية ، وبين أن يعتقد أنه سيخرج منها سقطاً مَسْبُوتاً هالكاً إلى غير رجعة ! إنها مسألة عظمى فى قيمة الانسان وفى سكينته واطمئنانه إلى مركزه فى الحياة

إن الانسان العادى غير الصوفى لا يحتمل أن يتلقى القول بأنه مخلوق للحياة هنا فقط ، دون أن يثور على الحياة أو يقنط قنوطاً قاتلاً لحيويته

لقد وصل القول عند بعض الفلسفات إلى اعتبار الانسان مظهر الإلهية أو شرارة من روحها ! فكيف إذاً ينطمس هذا المظهر ، أو تنطفئ تلك الشرارة ؟

ثم لنرجع إلى ما يثبته العقل للخالق من حكمة وعدل تقتضيهما ضرورة الكمال الإلهى الذى لا يستطيع العقل أن يستغنى عنه كصفة ثابتة للإله ، فنتساءل : هل فى الدنيا مع آلامها وشرورها عدل مطلق ؟ يجيب المؤمن والملحد عن ذلك جواباً واحداً : كلا ! ثم يفترقان ، فيذهب المؤمن إلى أن كمال العدل المطلق وراء هذه الحياة ، فى تلك الحياة المثالية التى فيها كل خيالات الكمال وأطياف السعادة التى طافت بأحلام كل الناس وسكنت رؤوس الفلاسفة والحكماء ، أوجدها فى نفس الانسان إلهام عميق خفى لتتم الصورة العقلية للكمال الإلهى . وفى هذه المقدمات وفى نتائجها المستمدة من منطق الطبع ومنطق التجريد

راحة النفس المؤمنة وسكونها وطمأنينتها

أما النفس الملحدة فماذا عساها أن تصنع غير طيران خواطرها فى فراغ لا قرار له ؟ إنها لا تملك أن تسقط على قرار حتى تتحطم فتستريح ! وملاكُ ما تنتهى إليه أن حياتها كحياة تلك الحشرات والديدان التى «تعيش» على الروث والعفونة فى الظلمات ثم تموت عليها وتدفن فيها ! ولتَحْيَ بعد ذلك السموات أو فلتسقط ! ولتكن هذه العوالم الزاخرة بالعلوم والجمال والعجب العجاب لتراها فقط أشباح تلك الحشرات الصغيرة والكبيرة من بُعْدٍ فتقتل غيظاً كل يوم ألف مرة ثم تذهب إلى غيبوبتها الكبرى مع الجهل كما كانت ! والحياة إذاً بلا قيمة أو غاية ، والرءوس الانسانية إذاً تفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء ، أو كما يفرز ذيل العقرب السم !

سلام لك أيتها النفوس المعذبة مما أنت فيه وإنه لعذاب غليظ !

إن الإلهام الذى فيك من الخالق يناديك : أنت المقصودة بالخلق فى الأرض ... أنت خالدة ...

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق . ولكم الويل مما تصفون »

* * *

ثم مادام كل ما فى الفلسفة فروضاً لا تدخل فى قليل أو كثير إلى العلم اليقينى ، فمالنا نترك الايمان بوجود مصير رفيع للانسانية على أنه فرض فلسفى ؟ إنه أصح الفروض وأصلحها للحياة الدنيا وأدعاها إلى الاصلاح المستمر المخلص

وهنا دليل ينبع ويستنبطه العقل من بين ما أقول : ذلك أن أقرب الفروض إلى الحق فى الدنيا هو ما يدعو إلى صلاحية النفس للحياة وإصلاحها لها ، وما يحل به أكبر مقدار ممكن من المشكلات ، وما صح تطبيقه على وجه الشمول بين الناس فى كل مكان وزمان . ذلك مبدأ تسلم به الفلسفة والعلم ومذاهب الأخلاق

ومصير الانسانية إلى حياة أخرى أسمى من هذه الحياة هو ذلك الفرض الذى ينطبق عليه ذلك التعريف السابق ، هو لا غيره

وقد عودتنا الحياة الدنيا أنها لا تحترم ولا تبقى إلا ما يتفق

مع حفظ قوانينها ويضمن اطراد تقدمها . فتى خلينا الدنيا من هذا الفرض أمام الانسان فهنالك تكون الطامة : طامة العمران. وإذا كانت معرفة مثل الزهاوى أن الانسان لا يأتى إلى هذه الدنيا مرتين قد حملته على أن يطلق لنفسه العنان في اقتراف اللذات ويدعو إلى ذلك نيارل :

لا تقف في وجه لذا تك مكتوف اليدين
أنت لا تأتى إلى دنيـــاك هذى مرتين

فما بالنا لو عرف الناس أنهم لا يأتون إلى دنياهم ولا يذهبون إلى مصير آخر ؟ إنهم يفعلون كل جريمة للذة وانتهاز فرصة الوجود الواحد فى هذه الحياة التى ليست حينذاك إلا وليمة أدبها لما القدر لنتلذذ ونتشهى فيها كما قال الأول :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
وحق لهم أن يفعلوا ذلك !

* * *

ينبغى أن تعلم وتتذكر دائماً أن « إرادة الحياة » إنما تحفل غاية الاحتفال بعقليات أكثرية الانسانية لا بعقليات هؤلاء الفلاسفة المسرفين ، وقطيع الانسانية يسير بالهام مركب كما تسير قطعان الحيوانات الأخرى بالهام بسيط ، وإذا كانت قطعان الحيوان لا تحتاج فى حياتها إلى فلسفة لأنها تسير بنظام أشبه بالنظام الآلي فان الانسانية تحتاج فى سيرها فى الحياة إلى الفلسفة ولكن من غير إسراف . فلا يفرضن حكيم أو فيلسوف شذت فيه شعلة الخيال والذكاء وقوة الافتراض عقله وطريقة إدراكه للأشياء على جميع عقليات الانسانية المرهونة بالبسائط والسجينة فى أقفاص فولاذية من الضرورات الجسدية . وقد دلت الانسانية بتاريخها المتيد أنها لا تستجيب لخيال الفلاسفة المسرفين إلى درجة الهذيان أحياناً . ومن مصيبة بعض الفلسفات أنها تتخذ الشك ديناً ؛ والشك حسن لمن أنه باب إلى اليقين عند من فى عقولهم محطات ورباطات تقفهم عند البديهي ، لا على أنه حالة استقرار فانه حينئذ يُجنُّ ويشق ويشرد العقل الانسانى وينفيه من حياة الالهام البسيط والمركب ، وكل شيء فى الحياة لغز وأحجية من ذرة المادة وصورها وتكوينها وطاقتها وقواها إلى الروح وأسرارها وخفاياها . كل شيء يحمل كل عقل بصير يقظ على أن يقف أمامه دائراً بأسئلة عنه لا عدد لها . وقد نقلنا فى مقال « النار المقدسة » المنشور فى عدد سابق من الرسالة عن « ملكن » العالم الكهربائى الكبير قوله : « خبرونى ما هي المادة ؟ أخبركم ما هى الروح ... »

وقد خابت الفلسفة اليونانية فى أن تخرج ديناً عاماً يتبعه جميع اليونان ، دع عنك أكثر الناس . وكانت كل مدرسة من مدارسها لا تظفر إلا بعدد محدود من التلاميذ لا يلبثون أن يتفرقوا بعد موت أستاذهم أو فى حياته ، من غير أن تقدم إحدى تلك المدارس إلى الناس وازعاً يقوم مقام وازع الوثنية التى كانت تضج بها معابدهم . ولا يزال « العقليون » خائبين فى إيجاد ذلك الوازع الأدبى الذى يحكم الجماعة من الداخل كما تحكمها القوانين من الخارج . ذلك لأن الانسانية ممدودة بالالهام الذي يربطها بما وراء الطبيعة . ولن تستغنى عن وازعه بما تقدمه لها العقول . إذ هى من جهة حائرة فى أى العقول تتبع ، ومن جهة أخرى هى لا تؤمن بما تصنعه هى ، ولا تعتمد عليه فى رغبتها ورهبتها . وما تقدمه إليها العقول مصنوع مخلوق أمامها فهو أرضى ضعيف غير ممدود بما وراء الطبيعة ، فلا يعزى ولا يخيف ولا يرغب .

وهذا هو ما يسلمنا إلى الحديث عن « النبوة والرسالة » ووجوبهما . والعمدة فيهما على معرفة « الوحى » وقد خرج الحديث عن الوحى من منطقة الفلسفة إلى منطقة العلم بالبحوث العلمية الأخيرة فى النفس الانسانية وقواها وأسرارها . وهي بحوث مبنية على التجارب التى هى أداة « العلم » بمعناه الاصطلاحى الآن .

الرستمية — عبد المنعم خلاف

وقعت بعض الأخطاء المطبعية فى المقال الثانى مما لا يتغير معه المعنى كثيراً ومما يدركه القارئ بالسياق إلا واحدة أرجو تصحيحها هى : « علما منهم أن الله راض لهم الفتنة » وصوابها : « راصد لهم الفتنة »